

ندى يتلأ ما بين الأوكار التي تجنح إليها طيور الخراب ، فقمعت أتأمل
ما كان عليه ربُّ هذا القصر من العزة وعظم القدر ، وكيف أخنى عليه
الدهر فأخذتني لذلك عِبرة من مشاهدة الآثار الباقيات وتذكرت نظم
شاعر يقول هذه الأبيات .

أيها الشامت المعيرُ بالدهر أنت المبرأُ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام بل أنت جاهل مفرور
من رأيت المنونَ خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى خيرُ الملوك أنوشرُ وإن أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرامُ ملوكُ الروم لم يبق منهمُ مذكور
وقد كان لمرأى هذه الآثار تأثير في الخاطر لا يبرح منه العُمرُ ، وكان
رحيلنا عنها قبيل الظهر ونحن على ستة فراسخ^(١) من دار السلام ، وقد
فرغت من تقييد هذه الرسالة في آخر يوم من رمضان أرانا الله بركته بمنه
وكرمه ، ونحن قد جُزنا موضعاً يعرف بالنهر وان^(٢) وصرنا على مُطلِّ من
الزوراء أم البلدان .

مُقامى فى دار السلام

اتفق وصولى إلى دار السلام فى عيد الفطر قبيل العتمة وهى تلمع
بالأنوار ويتصاعد من المسبِّحين بحمد الله والمقدِّسين له نغماتُ تروِّبها معهم
أرجاء المدينة ، وتمذر المسير على مركبتنا تجاه باب البصرة^(٣) أو كاد ،

(١) ياقوت ٤ : ٤٤٧ (٢) ابن خلكان ١ : ١٩٦

(٣) هو باب من أبواب بغداد

لازدحام الزوارق المشتبكة في هذا المكان ، وهي مظلية بأبهى الأصباغ والألوان . مرصعة بأنوار القناديل الحسان . حتى كأن دجلة في الزوراء . أشبه بالمجرة في كبد السماء . ثم تقدم بنا المركب حتى وقف بمقربة من الجسر ، وعلى مطلّ من قصور الخلافة التي كانت تتلأأ بضوء باهر ،^(١) فركبت البرّ في الموضع المعروف بحزيرة العباس ،^(٢) وقد فُصّ بمجموع من الناس وقد لبسوا الطيالس السود تشبهاً بملوك هذه الدولة الذين اتخذوا السواد شعاراً لخلافة حزناً على شهدائهم من أهل البيت ونيحاً على بنى أمية في قتلهم ، وشاهدت جماعة قد اتخذوا بدل العمام فلائس طوالاً مصنوعة من القصب والورق ملبسة بالسواد أيضاً ، وبدل الدروع دراعات مكتوباً عليها بين كتفي الرجل «فَسَيَكْفِيكُمْ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» ، أخبرني^(٣) بعض من لقيته في تلك الليلة أن أبا جعفر هو الذي أحب أن تزيأ حوزته بهذا الشكل من اللباس منذ ثلاث سنين .

ولما جلّنت في المدينة أخذت عن قطعة^(٤) أبي عيسى الهاشمي الى محلة يقال لها الميدان^(٥) ، ومنها إلى الشارع الكبير المعروف بشارع أبي جعفر ،^(٦) فوجدته كأحسن ما يكون وأحفله من الشوارع ، وله السيادة عليها بأمرين ، الأول اتساعه إلى أربعين ذراعاً^(٧) وإن كان يشاركه فيه غيره ، والثاني طوله من دار الخلافة إلى محلة باب الشام^(٨) على استقامة لبس في الامكان أصح منها ، فلما صرت فيه استقبلت في دور الخلافة زينة

(١) الأغانى ٤ : ١٨٩ (٢) في المسعودى أن السفن الواردة من البصرة تقف في بغداد بهذا الموضع (٣) ابن الاثير ٥ : ٢٤٥ والافانى ٥ : ٩٥ (٤) ذكرها ياقوت (٥) الأغانى ٢٠ : ٦٦ (٦) ابن خلكان ١ : ٣٠ (٧) ابن الاثير ٥ : ١ وابن خلدون ١ (٨) ذكرها ابن خلدون وابن الاثير

كضوء الشمس ، قد اتَّخِذَتْ عَلَى القبة الخضراء ^(١) التي رفعها أبو جعفر إلى علو يزيد على ثمانين ذراعاً ليُشرف منها على جهات المدينة وما بجوارها من البساتين ، كما أنه عُنِيَ بتجميلها بالرسوم العجيبة ليكون منها الدلالة على سعة ملكه والشهادةُ باقتداره على عظام الأعمال ، فكانت تظهر زينتها في تلك الليلة وهي مرتفعة في الفضاء كأنها إكليل من نور قد تدلى على قصر السلام .

ثم إنني أقبلتُ في صدر هذا الشارع على مسجدٍ جامعٍ عليه ازدحام فمات إليه ، برجال متمنطقين بالسيوف يَرْجِعُونَ الناسَ وَيَجْمَعُونَ ممرًا بين جموعهم ، ووراءهم رجلٌ طويلٌ ^(٢) أسمرٌ نحيفٌ خفيف العارضين مُعَرِّقُ الوجه ناطق العيين عليه ثياب سود من الخَزِّ وَقَلَنْسُوءَ مطوَّقة بوبر ^(٣) أسود من الأوبار الغالية الثمن ، وفي وجهه مهابةُ الملوك وجلالتهم ، فعرفت أنه الخليفة أبو جعفر على غير ما تدل عليه جاشيته ، إذ الشمسُ لا تخفى وان سُرِّتْ ، ثم لم أزل أتبعه بالعين حتى تواري بين الجموع وركب بغلة ^(٤) عليها حليةٌ خفيفة من الفضة ، وكان لجامها في يد حاجب من حُجَّاب الخليفة

ثم دخلت المسجد وعلى المنبر خطيب له بيان وفصاحة يقال له الحجاجُ ابنُ أَرطاة ^(٥) ، وعلى مقرُّبة منه قرأ سبعاً يتلون الآيات من القرآن إلى مائة آية من مواضع متفرقة وسور مختلفة ، فلما فرغوا من تلاوتهم تطايرت إليه رُقعٌ في مسائل الفقه فأجاب عنها بكلام أمضى من المرهف ، وحدث

(١) المسعودي والقزويني (٢) العقد الفريد (٣) ابن عون وذكر ابن جبير أنه رأى الخليفة ي بغداد وعليه قلنسوة ذاتوبر (٤) ابن خلدون (٥) ذكر في العقد الفريد أنه ولي القضاء لابن جعفر

عن البحر في بُعد النور رُقبِ المغترب ، وعهدى بمن لقيته من الخطباء أتى ما سمعتهم إلا تمنيت أن يسكتوا مخافة أن يخطئوا ما عدا هذا الفقيه الذي كان يُواتيه الكلام ويتابعه ، حتى إذا فرغ من جوابه على هذه الرقع اندفع في تفسير كتاب الله وإيراد الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى أن أخذ في سرد الآي المقروآت فأتى بها على نسق القراءة من غير تقديم ولا تأخير حتى انتهى إلى آخر آية وهي قوله تعالى « في يوتِ أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ^(١) الآية ، فتمت خطبة يذكربها المؤمنون قافية سجعاتها الألف اللينة واللام ترداداً لموقف الآية « الأصول » حتى أرسلت العيون لخشية الله عبراتها ^(٢) .

ولم أزل في المسجد مع القوم بين- قراءة وتسبيح إلى ما بعد العشاء الآخرة ، فخرجت التمس موضعاً أبيت فيه بقية الليل لعلى أجد في النوم راحة تعوض على بعض ما أخذ منى السفر ، فأرشدت إلى خان لطيف ينزله الغرباء من أهل التجارات وغيرهم ، فلما كان الصباح بكرت إلى استاذي أبي يوسف ، منزله على نهر عيسى ^(٣) في قنطرة الزياتين ^(٤) بمقربة من دور الخلافة ، فلتقاني بالبشاشة والايناس وأبى إلا ضياقتي عنده في جناح أفرده لي من داره ، وهو يؤمننى بلوغ ما أرتجيه من خدمة الدولة ، إذ لا يعدم قومنا محلا في مراتبها الووزارة في يد خالد بن برمك أميرنا . إنى إلى هذا اليوم أخرج في الفقه عليه ، وقد وجدت عنده من العقل والعلم ما يندر مثله في صدور الرجال .

(١) سورة النور (٢) من رحلة ابن جبير (٣) ابن حوقل ١٦٥

ويقول المسعودى ١ : ٤٧ انه يأخذ من الفرات وفي ابن خلكان ١ : ٧٤ . انه يأتي

بغداد من جهة الانبار و ١ : ١٠١ انه بجوار قنطرة الزياتين (٤) الاغانى ٣ : ١٨٢

وابن خلكان ١ : ٢٨٣

ذكر شيء من محاسن الزّوراء

ولقد أكبرتُ من الزّوراء رواجَ سوقها بالتجارة واشتباكَ أحيائها^(١) بالمعارة في مدة عشرين حتى جمعت من اسباب العمران ما لا يكون في مدينة بنيت من قديم الزمان ، ووجدتها من لطف الهواء وطيب الاقليم على خير ما تكون مدينة ، وفيها ما تشتهي الأُنسُ وتلذُّ الأعين ، وأسواقها في نهاية من الاحتفال ، قد جمعت بالكرج أخلاطا من التجار^(٢) والصنّاع ، إلا سوق الصاغة منها فانه منفرد بجماعتنا الفرس ، وقد بلغوا من الاجادة في صناعتهم الغاية بحيث يرصّعون الزجاج بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب الحسّم ، ويصنعون للملوك أقداحا^(٣) تقيّد الأبصار حسنا وإشراقا ، ويتخذون على الجامات صورا يُحكّمون صناعتها بالرسم إلى مماثلة الحقائق ، وقد رأيت من ذلك جاما قد صورت عليه طيور تطير^(٤) ومن فوقها عُقاب ينقضّ عليها ، وهي تهوى في الفضاء للتخلص منه ، لكن بهيئة تملك النفس وتستوقف الطرف . وإلى طرف هذه السوق مما يلي سُويقة غالب^(٥) جماعة من البنائين يبنون الدكاكين لأرباب التجارة باشارة من السلطان الذي أمر بتحويل الأسواق إلى الكرخ^(٦) ليعمدَ أخلاطَ الناس عن جواره .

أما دور المدينة فإنها متخذة على هندسة الفرس وصنائعهم ،^(٧) ومثال

(١) الاغانى ٩ : ٣٣ و ١٨ : ٦ (٢) الاغانى ٤ : ١٨٩ (٣) في المحصرى ١ : ٣٥ هذا الشعر لاني نواس .

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بانواع التصاوير فارس

الاغانى ٣ . ٢٧ (٤) ذكره ابن خلكان في محلة الكرخ ١ : ٢٤ في ابن الاثير ٦ : ٩٩ ان بين الكرخ ومدينة المنصور سورا يفصل بينهما ثم ان المعارة امتدت من وراء الكرخ حتى صار الكرخ في جوف بغداد (٥) المقدمة ٣١٣

ما بنت الروم في الشام أو حيث كانوا ينزلون من البلاد، وهي مجللة كلِّسا ومرفوعة إلى طبقتين^(١) ومبنى بالآجر ما ارتفع منها عن الأرض، وبالحجر ما يماسها دفعا للماء في أوان السيل^(٢) أن يبلغ الطين ويتمكن منه، ومنهم من يقوى الآجر بالقصبا والخلفاء ويعمسه بالحصن^(٣) حتى يصير يابسا وتكون له رنة كرنه الحجر الصلد إذا صلصل. وليس لدور العوام أسوار تحيط بمنازلهم وإنما تطل نوافذها على الشوارع^(٤) بحيث إذا ارتفع المار على حجر أو على دابة تسر له أن ينظر من بداخل البيت،^(٥) أما دور المتمولين من أهل اليسار فانها ثلاثة أقسام يجمعها سور واحد، وهي مقاصير الحرم وحجرات الخدم ومجالس السلام. وفي ساحاتها جنات تزرع فيها البقول والرياحين والرمان وسائر الفاكهة حتى تكون روحا وريحانا واسترواحا للنفس، وعلى جدرانها وسقفها نقوش في رسم ملون أو فسيفساء من ذهب، وعلى دائر الأبواب والقمريات وبرادات^(٦) الدور كتابة يتخذونها من الزجاج^(٧) الملون ويحوظونها بخشب أسود من الآبنوس وغيره، ثم يعلقون عليها رسوما من النحاس مثل غصونا وثمارا وأزهارا وأشكالا فيها كل غريبة من الابداع، فتمتلئ العين ارتياحا من النظر إلى إشراقها. واني ليعجبني من جمال مبانيهم ما يتأقنون في زينته من الخارج أيضا، فإن القباب التي يرفعونها من فوق السطوح على عمد قد دقت أمثال الرماح ليخيل للرائي أنها لا تستند على شيء. وكانما هي معلقة في الهواء.

(١) يستدل على ذلك من الاغانى ٢: ٧٣ و ٣: ٣١ (٢) ذكر الاغانى

٩: ١٤٤ وقوم سيل ييغداد (٣) ابن خلدون ٣: ١٩٧ (٤) الاغانى ١٧: ٤٩

(٥) الاغانى ٥: ٣٨ (٦) الاغانى ١٧: ١٢٩ (٧) القزوينى ١٢٧

ولما كان الحر يشدّ وَهجه في الزّوراء ويفتقر أهلها إلى رطوبة الماء افتقار النفس إلى الهواء قلّ أن يخلو سوق من أسواقهم أو بنية من مبانيهم من سقاية يجرى بها ماء دجلة ، ^(١) ولذلك لا يسير فيها الرجل إلّا محفوفاً بالشجر المزهر والرياحين ^(٢) التي يتفنى بوصفها الشراء . وهذا دليل على أن الزّوراء كلّها ماء ونماء . ولأهلها في إقامة الأحواض عناية تامة فيرفون عليها تمّداً مزخرفة من الرّخام ويعقدون من فوقها قباباً منقوشة بآيات من الذهب ^(٣) وما بينها النقوش الظريفة والرسوم التي تقرّ بها العيون . فتوسموا من اتخاذها للضرورة إلى المغالاة بزینتها على سبيل الترف والترقه ، وإذا اشتدّ عليهم الحر اتخذوا أسراباً تحت الأرض وأقاموا فيها بالنهار ليكسروا الحر كما يقولون ^(٤) .

ولقد عظمت عناية أبي جعفر بهذه المدينة حتى أنه أفق نحواً من أربعة آلاف ألف دينار في بناء السورين اللذين يحوطانها والمسجد الجامع ودور الخلافة والمجالس التي عقدها فوق أبواب السور الخارجي من طاقاتها المعقودة ، وهي أربعة أولها باب خراسان ويسمى باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان . والثاني باب الكوفة وهو يلقاه الكوفة . والثالث باب الشام وهو من ناحية الغرب . والرابع باب البصرة وهو بمقرّبة من دجلة . وقد حمل إليها أبوابها من واسط والشام ^(٥) والكوفة على بعد الشقة والشقة . واتخذ الأبواب الداخلة مزوّرة عن الأبواب الخارجة ^(٦) ولذلك

(١) المقدمة ١٠٥ و ٣٥٧ والافاق والاطليدي (٢) ياقوت ١ : ٦٨٧

(٣) الاطليدي ٢٢٦ (٤) من ابن خلکان (٥) ابن الاثير ٥ : ٢٣١

(٦) تقويم البلدان ٣٠٣

سميت المدينة بالزَّوراء .

ثم إن تناهى جمالها بما شاد فيها الأمراء من المباني التي تقف عندها الغاية في الفخامة والاشراق ، ولا سيما ما كان من المساجد المزخرقة فانها لكثيرة ^(١) في الزَّوراء ، أثبت منها على زيارة مسجد في قنطرة الصَّراة ^(٢) ومسجد بناه عبد الله بن حرب في الموضع ^(٣) المعروف بالحريية . ومسجد أقامه أمير من آل قحطبة في شارع الحرم ، ^(٤) وآخر بنته الخيزران زوج ولى العهد في الخيزرانية ، ^(٥) وهو فائق الحسن وفيه أكثر من ثلثمائة قنديل من الفضة والذهب ، وصحنه من حجارة سود شديدة البصيص تصف الأشخاص كالمراة ، وعلى حيطانه صور تفاحات وثمار وغصون تخيل للوفاد على المسجد أنه بين شجرزاه مزهر . في روض باه باهر . ورأيت العملة قد حاكبوها فيها رسوم الأعاجم على انسجتهم حتى جاءت الحجارة توم الرأى أنها بسط مجلت من طبرستان ، ولا فرق بينها إلا فرق ما بين الصوف والحجر ، وليس في مساجد الزَّوراء مثله في الزينة إلا مسجد بناه أبو جعفر في شارع دُجَيْل ^(٦) مما يلي باب الأنبار ^(٧) والمسجد الجامع الذي يجوار ذور خلافة .

-
- (١) ذكر القرماني وغيره أنه كان يعداد ثلاثون ألف مسجد وعشرة آلاف حمام (٢) موضع يعداد ذكره ابن الاثير ٦ : ١١٧ (٣) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٣ وياقوت ٤ : ٥٨٦ والمسعودى ٢ : ٢٤٠ و ٣٨٨ (٤) ذكره الاغانى ٥ : ١٢٦ (٥) ذكره ابن الاثير ٦ : ١٠١ (٦) ذكره ابن خلكان ١ : ٤٩٨ (٧) ذكره ابن الاثير ٦ : ٩٨ والمسعودى ٢ : ٢٤٠ والمستطرف ١ : ٢٨٩

في تقربي من رجال الدولة

ولقد لقيتُ في الزَّوراء جماعة من الأمراء المقدمين في الدولة غير أنني انقطعت إلى خدمة ملوكنا البرامكة وملازمة بابهم في البكور والرواح ، إذ كانوا أصحابَ فضل وجمال ومروءة وعفاف . وقد وقع بيننا من المودة ما ضمني وإيامهم في أوثق جبال الانس والائتلاف . وتقربت بكفالتهم إلى معن بن زائدة الشَّيباني ورواح بن حاتم المهلبى وهما أعظمُ رجال الدولة بدمهم ، وكنت إلى آل المهلب أكثر منى تقربا إلى شيبان^(١) وإن كانوا جميعا على خلاف غرضنا من الميل مع أهل البيت ، إلا أن معنًا كان على مخالفة البرامكة والانحراف عنهم من حيث تقدمهم في مراتب الدولة وهم أغرابٌ عن العرب ، وذلك لم يكن في آل المهلب فانهم كانوا مع البرامكة على خُلطة ومودة واتصال .

وأقربُ الأمراء مكانا من الخليفة هو خالد وزيرنا لقيامه بثقل الدعوة في خراسان من قبل أبي مسلم الخراساني . وهو من أولاد الملوك لم يبلغ أحد مبلغه في رأيه وعلمه وبأسه وجوده وجميع خلاله ،^(٢) والمنصور لا يُبرم أمرا إلا بمشورته ، ولا يركن في أعماله إلى أحد سواه اللهم إلا في سياسته مع العلويين فانها كانت جارية على البغض والجور ، مع أن خالدا ميال إليهم منذ أخذ في الدعوة الإمامية بخراسان ، وهي إذ ذاك لهم وللعباسيين جميعا . أما المهلبيون فانهم من عظماء العرب ومن لهم الرأي المقدم عندم والإمرة

(١) يقول ابن الاثير ٦ : ٥١ أن شيبان كانوا مع البرامكة على انحراف

(٢) ابن خلكان ٢ : ٣٦١ والمسعودى ٢ : ٢٢٢

المطاعة عليهم ، وقد كانوا هم وآل قحطبة من القواد الذين نصرُوا العباسيين على بنى أمية ثم انضافوا إلى جملة أبى جعفر بعد الفرقة بينه وبين العلوية رغبةً عن الأئمة من أهل البيت ، فقدّمهم أبو جعفر فى المراتب من هذا الوجه حتى انصرفت إليهم الوجوه وانطلقت الألسن فى مدحهم بالقصائد التى تعظم عن أن يقال مثلها فى الخلفاء أنفسهم كقول المغيرة بن حنّاء أمسى العباد لعمرى لاغيث لهم إلا المهلبُ بعد الله والمطر هذا يذود ويحمى عن ديارهم وذا يعيش به الأنعام والشجرُ وأما معن فإنه أمير شيبان كلهم ، وقد اجتمعت فيه جميع خلال العرب الحسان إلا أنه غلب عليه الجود مقرّونا بحلم يتحير فى نعته اللسان . وشيبان من بيوتات العرب فى قریش ، وهم أربعة بيوت بعد بيت بنى هاشم ، وهى بيت قيس . وبيت تميم . وبيت شيبان . وبيت اليمن .^(١) وقد كان معن على مخالفة العباسيين لأول ظهور دُعائهم وأبلى مع بنى مروان بلاء حسنا ، فلما انقرضت دولتهم طلبه أبو جعفر طلبا شديدا وجعل لمن يأتيه به مالا جزيلا فلم يظفر به لأنه كان مقيما فى البادية كما يقال ،^(٢) ثم إنه رجع إلى

(١) الاغانى ١٧ : ١٠٥ (٢) قد وقع لمن أيام كان يطلبه أبو جعفر ظريفة أحببت أن أذكرها هنا لتكتمه فكاهية تدل على كرم العرب وأناة نفوسهم والكلام فيها لمن يقول كنت قد اضطررت لشدة الطلب الى أن أقيم فى الشمس حتى لوحى وجهى وخفت عارضى ولحيتى فلبست جبة صوف عريضة وركبت جملا من الجمال النقالة لأمضى الى البادية فأقيم بها فلما خرجت من باب حرب تبغى أسود متقلدا سيفا حتى اذا غبت عن الحرس قبض على خظام بعيرى فأناخه وقبض على قنك له مالك قال أنت طلبية أمير المؤمنين قلت ومن أنا حتى يطلبنى أمير المؤمنين قال أنت معن ابن زائدة فقلت يا هذنا اتق الله أين أنا من معن قال دع هذا عنك فأنى والله لأعرف بك منك فقلت ان كانت القضية كما تقول فهذا جوهر حملته معى يهى بأضعاف ما بذله أمير

المهاشمية^(١) مثلثا ووافق يوم وصوله قيام الرواندية على الخليفة في الأسواق ، وقد قاتلوه إلى أن ضاق به الحناق ، فكان ممن يجد في ذلك اليوم وسينة لهلاك أبي جعفر بانضمامه إلى العدو وبعد أن بدت له مقاتله ، ولكن أبت مروءته إلا أن يكون الحلم في نفسه طبيعة تجلُّه عن مطامع الأخساء ، فأعلن السيف دونه حتى كشف عنه سواد العدو . فلما عرفه أبو جعفر طابت به نفسه وجعل له الولاية ومكّنه من خزائن المال .

ولقد دخلت على هذا الأمير مرة واحدة فأصبتة بين حرس على رأسه وحفدة بين يديه ،^(٢) وفي حضرته جماعة من الأدباء الندمان قد خاضوا في حديث الشيعة في خراسان . وأخذوا يتناقلون خبرها من غير نقد ولا إمعان . فضلّ عنهم سر السياسة فيها إلا رجلا من شيبان يبلغ الفطنة يقال

المؤمنين لمن جاءه في نخذه ولا تسفك دمي قال هاته فأخرجته إليه فنظر إليه ساعة وقال صدقت فيما تذكر عن ثمنه ولست قابله حتى أسألك عن شيء فان صدقتني أطلقتك قتلته له قل قال ان الناس قد وصفوك بالجود فاخبرني هل وهبت قط مالك كله قلت لا قال فنصفه قلت لا قال فثلثه فربعه فخمسه حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت أظن أني قد فعلت هذا فقال ما أراك فعلته . أنا والله راجل ورزقي من أمير المؤمنين عشرون درهما في الشهر وهذا الجوهر قيمته عشرة آلاف دينار وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس لتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل شيء تفعله ولا تتوقف عن مكرمة قط ثم رمى العقد في حجرى وترك خطام البعير وانصرف فقلت يا هذا والله قد فضحتي ولسفك دمي أهون على مما فعلت فخذ مادفعت إليك فاني عنه لغني فضحك ثم قال أردت أن تكذبني في مقالى والله لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثمناً ومضى فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن يحى به ساءه فما عرفت له خبراً وكان الأرض ابتلعه . ابن خلكان ٢ : ١٦٠ . والأغانى ٩ : ٤٣ . ومجائب المخلوقات ٣٠٩ (١) كان يقيم فيها المنصور قبل بناء بغداد .

(٢) الابشهي ٢ : ٣٠٩ . والالتلدي ١٠٩

ناه محمد بن الحسن الشيباني ، وهو بسيط اللسان إذا تكلم خيلاً لسامعه أن القرآن نزل بلغته ،^(١) فكان يرى لنكية أبي مسلم رحمه الله السبب الذي لم يفظن له أحد من هؤلاء الجلّاس ، فانه لم يتحقق لدى مما يذكرون من أن الخليفة قد نكبه لِمَا كان من سبقه إياه إلى الحج ولا لادعائه أنه من ولد العباس ولا لتصدير اسمه قبل اسم الخليفة في الكُتُب التي كان يبعث بها إليه ولا لافراطه في القتل ، وإنما نكب أبو مسلم ما كان من ميله مع أهل البيت وإمداده إياهم بالرأى فيما يدبرونه لأمر أنفسهم ، حتى إذا علم الخليفة منه ذلك وخاف من فتنة صمّاء تعصف ريحها بالدولة استقدمه إلى المدائن وفي نفسه أن يفتك به على غرّة ، وكان أبو مسلم على حذر من ذلك كما ظهر من كتاب له إلى أبي جعفر ومما كان من استصحاياه للجنود في سيره إليه ، ولكن طلع عليه وهو بين يدي الخليفة جماعة من حيث لا يدرى فاعتوروه بالسيوف ومعن يعلم هذا كله ولكن لا يقوله إجلالاً للأمير المؤمنين .

وأما ما يقولون من أنه خامل السُلالة فليس ذلك إلا من باب التديس لموافقة أرباب الدولة على أهوائهم ، على أنه لو صحّ ادعائهم ما منع من أن تكون به خصال لا تُرى في عامة الناس ، فانك لتعلم أنه ملك خراسان^(٢) وهو ابن تسع عشرة سنة ، وأبدي من السياسة وهو بذلك العمر ما عجز عن تدبير مثله الحكماء ، وكان ثبت الجنان إذا جاءت الفتوح العظام لم يغلب عليه السرور ، وإذا نزلت به الحوادث الفادحة لم يظهر فيه اكتئاب ،^(٣) وكان

(١) أبو الفداء ١٩٢ وابن حلكان ١ : ٦٤٧ والخنيس ٢ : ٣٣٣

(٢) (ذكر) صاحب المقد القريد ١ : ١٢١ أنه ربما جرى عليه لقب أمير المؤمنين

(٣) ابن خلكان ١ : ٣٩٨

أقلّ الملوك طمعاً^(١) وأبعدم بين الناس شهرة ، حتى كان اذا حج هربت العرب من وجهه ولم يبق في المناهل منهم أحد لما كانوا يعرفون من شدة بأسه ودهائه ، وهو أكبر ملوك الاسلام . والرجالُ عندي ثلاثة وهم الذين قاموا بانشاء الدول . الاسكندر الرومي . وأردشِيرُ الفارسي . وأبو مسلم الخراساني .

لُمة من أخبار أبي جعفر

ومن المقرّبين إلى أبي جعفر غير من لقيته من الأمراء المقدم ذكرهم الربيعُ بن يونس حاجبه ومولاه ، وهو حظي عنده ومكين لديه إذ أنه مقدم على الموالي ، وهم المقدمون في هذه الدولة ، لبلائهم مع يزيد بن المهلب ، على ملوك بني أمية بجزان^(٢) وما إليها من البلدان ولا استمرار أبي جعفر على تقديمهم في الرياسة تحفظاً على نفسه من العرب الذين يميلون مع أهل البيت ، وهو يجد عليهم أشدّ مما يجد على بني أمية فتجد أكرمك الله أن أبا جعفر لم يقدم الأعراب^(٣) في مراتب الدولة إلا بما هو مطبوع في نفسه من التيقظ والسهر ، كما تجد أنه ما أبناه مدينته إلا الخوفُ من أهل الكوفة أن يفسدوا جنده ويحملوه على مناصرة أهل البيت ، فجمع المنجمين لذلك ولم يياثر بناءها إلا بعد ما أعلمه نوبختُ بسلامتها من الأعداء ، ولما فش في العارة وجمعت أخلاط الناس خاف قيام العدو عليه فأقلل الدروب بالليل ،^(٤) وأقام عليها الحراس وحوّل

(١) أبو الفرج ٢١٦ (٢) الأغاني ٩ : ٢١ (٣) ابن الاثير ٦

(٤) الأغاني ٧ : ٣٤

الأسواق إلى جهة الكرخ كما تقدم حتى لا يبقى بجواره من لا يأمن ناحيتهم، وشرع قومُه يقولون إن رسول الروم أشار بذلك إليه وقد سأله لما وفد عليه كيف وجدت بلدنا أيها الرسول؟^(١) فقال إني رأيته أعزَّ على الطالب من بيض الأنوق بيد أني رأيت الغريب يطرقه ويبيت فيه، وربما كان فيهم العين والجالسوس. وهذا كلام فيه بعض المية عندي لأن من أبناء الخوف مدينة حوطها بسور بل سورين^(٢) وحفر بمدما خندقاً بعيد المهوى غنى بما في نفسه من الخوف عن أن يخوفه أحد كيد العيون ومحالمهم.

نم إنا لنجد له هذا التيقظ في البخل الذي ليس هو فيه عن لؤم^(٣) يُغلّ يده عن الخير، لأنه وصل أعمامه بمشرة آلاف ألف درهم لكل واحد ألف ألف درهم،^(٤) وهو أول خليفة وصل بأمثال هذه الهبات، وإنما أمسك يده عن العطاء مخافة أن يقع ماله في يد المتربصين به من المخالفين، كما أنه أقل من أعطية الجند ليأمن عصيانهم^(٥) واستغناءهم عنه، كأنه يعمل بالمثل السائر الذي يقول جوع كلبك يتبعك،^(٦) وإلا فانا لا نرى هباته إلا لمن هو خلو من الأغراض السياسية من أهل العلم والأدب وان كان لا يصل هذا العطاء إلى الكرم، وذلك لما نعلم من خروج^(٧)

(١) ابن الأثير ٥ : ٢٣١ (٢) أبو الفرج ٢١٩ والمسعودي ٢ : ٣٨٧
(٣) الفخرى ١٨٨ وأمر البخل في أبي جعفر معروف ومتفق عليه (٤) المسعودي ٢ : ١٩٤ والمستطرف ١ : ٢٠٠ (٥) في ابن الأثير ٦ : ٥ ان المنصور عرض جنده في السلاح وهو لابس درعاً وبيضة (٦) الفخرى ٦٩ (٧) الاغانى ١٣ : ٩١ وفي العقد الفريد ١ : ١٢٢ أن حاجب الخليفة قال له أن الشعراء يبابك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم

الشعراء في أيامه من الحضرة إلى غير وجهه يسترفدون بها صلّتهم .
وأما دليل تخوّفه من ولاة الأقاليم فكونه يذكي عليهم الميون
ويتدارك عزلهم من قبل أن ترسخ في الامارة قدمهم ثم يستولى على ما يصل
إليه من أموالهم ويجعله في بيت سماه بيت مال المظالم^(١) حتى يقعدّم عن
القيام عليه في ثورة أو مخالفة ، وليس ذلك حباً في جمع المال وادخاره كما
يزعم كثير من الناس لأنه لولا أنه بخل ناشىء عن رأى له في السياسة
ما حنق على معن حين جاد بماله على أهل اليمن ليسهل من أمرهم ما حزن^(٢) ،
كما أنه لو طمع في حفظ هذه الأموال المنتصبة ما أوصى ابنه بردها إلى
أربابها في كلام من الوصية يقول فيه^(٣) إني لأحضك يوم تدركنى الوفاة أن
تدعو من أخذت ماله وترده عليه ، فانك ستخمد بذلك إليهم ، ولكن
إياك أن تعود إلى توليتهم المناصب لأنى مارأيت الوفاء طبيعة إلا في
الموالى والأغراب .

ثم إنه طمع من هذه السياسة إلى أن يأخذ التجارة بالشدة ويضرب
عليها المكوس تثقيلاً على التجار ، فوضع على الخوانيت خراجاً^(٤) لم يسبق
له عهد في الاسلام .

هذا ترزيسير من أخبار أبي جعفر وفيه دلالة قاطعة على الخوف الذي
يدعوه إلى التيقظ ، والناس يقولون إنه صالح النظر في السياسة وربما
جارتهم على ذلك فيما هو آخذ بتدبير أمره ، غير أنه حبس النفس الزكية
محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسين رضى الله عنهم وقتل أخاه ابراهيم بن

(١) ابن الاثير ٦ : ١١ (٢) ابن الاثير ٦ : ٩ (٣) الفخرى ١٨٧ وابن

الاثير ٦ : ١٢ (٤) المقرئى ١ : ١٠٣

عبد الله وكلاهما برآء من الذنوب ، ولست أرى لأبي جعفر فيما وقع له .
الظفر بهما على سبيل الاتفاق وجهاً تطمئن به نفسه ، لأن فشل العلو
إلى هذا اليوم انما نشأ عن تفرق دُعَاتهم على أغراض ، لم تجمعهم غداً
واحدة في جميع البلدان بل كان بعضهم منقطعاً عن بعض ، وكان كل واحد
منهم منفرداً إلى نفسه فيما يطلبونه من ثأر شهدائهم المشرفين (عليهم
صلوات الله ورضوانه) ، فغلبهم أبو جعفر من هذا الوجه وظفر بالواحد منهم
بعد الآخر كما كان شأنُ الأمويين في مقاتلتهم من قبل ، ولو أنهم جمعوا
دُعَاتهم إلى الوحدة وأثاروا العراق وخراسان والحجاز في غرض واحد كما
فعل أبو مسلم رحمه الله في اظهار الدعوة الامامية لأعاد الله إليهم الخلافة
التي غلبهم عليها الأمويون ، وهم الذين عرفت لهم الفضائل التي لا يستطيع
المكابرون من أعدائهم^(١) انكارها ، والله يؤتي ملكه من يشاء وهو العليم
الحكيم لا شريك له .

ذكر الفتوح وأن العدل هو الذي حفظها للمسلمين

ويا حدثني لسان الشريعة بهذه الأخبار وافق قوله ما في نفوسنا
من التحسر على أهل البيت لضياح حقوقهم ، وقد كنت استزدته الحديث
عن أخبار العرب وأيامهم فحدثني عن فتوح الاسلام خبراً أحببت أن أسرده

(١) قال عمر بن عبد العزيز من ملوك بني أمية ان الذين حولنا لو يعلمون من
علي ما نعلم لتفرقوا عنا إلى أولاده . ابن الاثير ٥ : ١٧ وكذلك الحجاج بن يوسف
جلس يوماً يعطي الناس على بلائهم فقام رجل يطلب العطاء وكان من قلة الحسين بن
علي رضى الله عنه فلما علم الحجاج ذلك قال له انك لا تجتمع أنت وهو في مكان واحد
ثم أخرجه ولم يعطه شيئاً . ابن الاثير ٤ : ٢٣٩

إليك في هذا الكتاب ، وأسلك فيه سبيل الاطباب ، ليكون نغراً للأعراب ،
باقياً إلى منتهى الأحقاب . فان الله تعالى لما أراد أن ينشر فيهم رحمته بعث
إليهم رسولا منهم ومعه كتاب من الله ناطقٌ بالهدى ودين الحق ليُجبرهم
من الملمات التي وقعت فيها جاهليتهم لمخالفتهم سياسة الشرع وتباين عقائدهم
في الدين ، إذ لم يكن فيهم من الموحدّين المقرّين بالخالق المصدّقين بالبعث
الموقنين بالثواب في الآخرة إلا نفر قليل ،^(١) فجمع بالرسالة كلمتهم ، ونزع
الكعبة من يد الجاهليين الذين وضعوا بها تماثيل آلهة^(٢) وتركوا عبادة
الآله الواجب الوجود ، من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فتن تجده له
ولياً مُرشداً^(٣) .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مأموراً في بدء رسالته بأن يدعو
العرب إلى الاسلام ، ثم جاءه الوحي بدعوة الناس كافةً إليه ، فلما قبض صلى
الله عليه وسلم وهو مشكورٌ سعيه مرفوعٌ منزلته انقبضت نفوس العرب
وباتوا في موقف التردد ، فمنهم من كانوا يخافون أن يدخلوا في ولاية أحد
من بعده يُطلق يده في الأمر بما يشاء ، وعهدُهم قريبٌ بالجاهلية من
تباين الميول والأهواء ، فلما رأوا من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم
بُعدهم عن الأغراض النفسانية ، والتماسهم من الخلافة السلوك في سنة الله
ورسوله دون شيء آخر من حاجات الدنيا إلا هداية الناس ، اجتمعوا على
كتاب الله أمةً واحدة في دين وسياسة ، حتى غلبوا الملوك على أمرهم
وابتزوا الأعاجم سلطانهم وحازوا مُعظم العالم في شرق وغرب .
وإنما صال المسلمون كالسباع ، وشدوا على الحصون والقلاع . وترأوا

(١) المسعودى ١ : ٢٣٩ (٢) المقدمة ٣١١ (٣) سورة الكهف

على ممالك الحَضْر، واقتحموا المشاقَّ والغررَ، بما حضَّهم عليه الكتاب من الجهاد، ولأنَّ المائت منهم في ساحة الحَمَلات، شهيدٌ له في دار الخُلْد جنات. وعدهم الله تعالى ذلك بقوله « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله »، ^(١) فلما ندبهم أبو بكر رضي الله عنه إلى فتوح الشام أقبلوا بنسائهم ^(٢) وولدهم ويوتهم وماشيتهم وسائر ما يملكون، وعلى وجوههم سيات الفرج والابتهاج، ^(٣) كأنما النصرُ محقق في النفوس صِرفاً بغير مزاج. ويقال إنَّ الشيوخ الفانية قد قدموا مع أولادهم ليطنوا الأرض التي وعدهم النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إذا رآهم أبو بكر ابتدرهم بالسؤال أن لِمَ أقبلتم؟ ومعناه يزيد على كلامه بأنَّ ليس لكم عزم ولا فيكم بقية، فقالوا قدِمنا يا خليفة الرسول رغبةً في ثواب الله وحباً في فاكهة الشام واستعداداً بمائه الزُّلال، ^(٤) فتفائل منهم بالخير، وقال إن ربكم يُعطى النصرَ العزيزَ لمن يشاء. فإذا كان هذا عزمَ المسانِّ وإقدامهم فما الظنُّ ببسالة الفتيان الذين هم ضراب السيف، ^(٥) وشُرَّاب الحُتوف؟ فإن تنظر إلى ما تعرف لهم من الأشعار. ويروى عنهم من الأخبار. تجدد أنهم لا يبتغون بغير الكفاح الفخار. وتستدل على أن قوتهم في مهاجمة الديار. أشدُّ من عدوتهم القلاع والأسوار.

ومما حفظ هذه الفتوح للمسلمين أنَّ البلدان التي دخلت في حوزتهم لم تُبدِ إشارة ثورة ولا أمانة فتنة، لأنها كانت قبل ذلك في سلطان الفرس أو الروم

(١) سورة النساء (٢) يا قوت ٤ : ٣٢٤ (٣) المقدمة ٢٣٢

(٤) الواقدي (٥) ذكر الطرطوشي ١٧٣ أن من فرسان المسلمين من ضرب

عدوه بسيفه فقطع البيضة الحديدية التي على رأسه

فاستوى لديها أن يحكما كسرى أو أمير المؤمنين . وربما مالت إلى عُثمَال الخلفاء أكثر من ميلها إلى عُثمَال الروم لِمَا وجدت قبلهم من وفور العدل والقيام على مراعاة اليهود مما أمر به الخلفاء الراشدون رضی الله عنهم وحرّضوا على التشبث به ، حتى لقد عزلوا خالد بن الوليد عن الامارة من أجل أنه أراد أن ينقض الأمان الذي أعطاه أبو عبيدة المعروف بأمين الأمة لأهل دِمَشق ، إذ دخل مدينتهم صلحاً ، بينما كان خالد يدخلها بالسيف . وأمثال هذه الرعاية المنصفة كثيرة في سير الخلفاء ، وكانوا إذا أوصوا عمالهم باستعمال العدل والاحتراس من المعصية والاستنكاف من القتل الكثير قالوا لهم « إنه لولا ذلك لم تكن لنا بالأعاجم قوة ، إذ كان عددنا دون عددهم ، وعدتنا دون عدتهم ، فان استوفينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة ، وإلا نُصِرْ عليهم بفضلنا لم تغلبهم بقوتنا » فيظهر لك أنه إنعام الله بالاسلام بما عدل الخلفاء الراشدون رضی الله عنهم في زمن الفتح ، وما أوجد الله فيهم من حسن السيرة التي ذهبت فضائلها مثلاً بين الناس ، حتى إن الخلق الكثير من الأعاجم كانوا يدينون بالاسلام على بعد الديار ، وليس ذلك إلا لما يسمعون من عدل الخلفاء وعفاف أنفسهم . فلمعمرى إنه لولا انقلاب خلافة الملة إلى مُلك في يد الأمويين ما بعد أن يعمّ الاسلام العالم بأسره ، والله تعالى أعلم بالغيب ، وله في قضائه حكمة تعالت عن أن يدركها العباد .

هذا هو السر في اتساع الفتوح وحفظها في يد المسلمين ، والاعاجم يعلمون ذلك ولكنهم يقولون إن الاسلام غلب أمماً لا مدينة عندها ولا نظاماً للملكة فقوى عليها . وهذا مردود من وجوه كثيرة ، ولا سيما أن

فارس كانت من أضخم الدول سلطاناً ، وأبعدها في الحكمة أعرافاً ، فله يصعب عليه منالها ، كما لم يعسر عليه غلب الروم في الشام ، وهم بمكان من المدينة لا يرام . ولست أقول إلا أنه لما نشأ الاسلام كانت القياصرة في ضعف وانحلال ، وكان الفرس يمزقهم ظلمُ العمال . فكان ذلك داعياً إلى انتزاع ملكهم ، ولم ينل الاسلام اخفاق في عهد الخلائف الأولين وهم بمكانهم من صلاح الرأي وحكمة السياسة . فلم تهزم للاسلام راية في أيامهم ، إلى أن ذهبت الخلافة من بيت علي عليه السلام فذهبت سداجة الملة ، واتقلب أمر الأمة من الخلافة إلى المُلْك ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً عَضُوضاً) والله في خلقه شئون ، وهو يقدر الليل والنهار .

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة في أول يوم من رجب من السنة السابعة والحسين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف السلام وأزكى التحية .

لِقَائِي وَوَلِيَّ الْعَهْدِ وَحِظُوتِي لَدَيْهِ

هذا كتاب إليك أبدأ فيه بذكر لقائي ووليَّ العهد ، فإننا في بعض الأيام ، ونحن جلوس إلى فقيه الاسلام ، إذ دخل علينا البيت خادم من خدم الخليفة فتخوَّف الفقيه من شيء لم أدر ماهو ، وكذلك الناس يفشاهم الخوف والانتباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة على غير موعد ، ^(١) فقال له أبو يوسف سبق وهى إلى أنك تطلبني لأمر جَلَل ، قال أَجَلْ إن الأمير

(١) هو أمر معروف في الحكايات وكتب التاريخ